الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال في القرآن الكريم
دراسة بلاغية

إعداد

د. أشرف حسن محمد حسن علي الدبسي

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد والبلاغة

جامعة المدينة العالمية

ملخص البحث:

تحدث البحث عن الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال، وحاول أن يلقي بظلال بلاغية على هذا الموضوع؛ لتعلقه بكتاب الله تعالى، وجاءت المقدمة متناولة لأسباب اختيار الموضوع، ومشكلته، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وتقسيمات البحث، التي جاءت في:

تمهيد تناول وجه إعجاز القرآن الكريم، وأهم ملامح هذا الإعجاز، والفصل الأول الذي تناول: تعريف الجرس والإيقاع، ونماذج له من القرآن الكريم، والفصل الثاني الذي تناول: تعريف الإيحاء والظلال، ونماذج له من القرآن الكريم، وتناولت الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث، والموضوعات التي أثارها البحث.

الكلمات المفتاحية: الجرس- الإيقاع- نماذج من القرآن- الإيحاء- الظلال- نماذج من القرآن.

شكر وتقدير

يسعدني، ويشرفني، أن أدون كلمات من نور، في صدر هذا البحث، تتلألأ بالشكر والتقدير، والعرفان لأستاذ عظيم، وعالم جليل، أحبَّه طلاب العلم، وكل عارفيه؛ لنبله، وعلمه، وإخلاصه، وسماحته، ووده، الأستاذ الدكتور/ محمد بن خليفة التميمي، رئيس جامعة المدينة العالمية؛ فقد كان ولا يزال بهذا الصرح العظيم -جامعة المدينة العالمية- ناشرًا ومعلمًا للغة وتعاليم الدين الحنيف عبر هذا الصرح العلمي المميز، وإني أشكر لهذا الرجل، عنايته المضاعفة بنشر العلوم العربية والإسلامية وعنايته بطلاب العلم، وهمته العالية، فقد يسر لطلاب العلم الطرق المعبدة في البحث والتنقيب، والمراجعة والتصحيح، فكان نجمًا يَقتدي به طلاب العلم، ومنبرًا يشع علمًا ورحمة، وأبوة حانية، وصفاءً، وكان قول الشاعر معبرًا عن ذلك:

يا ناشر العلم بهذي البلاد وفقت، نشر العلم مثل الجهاد
يا باني المجد، أنت الذي تبني بيوت العلم، في كل ناد

[الشوقيات، لأحمد شوقي: (116/1)، طبعة المكتبة التجارية]

كما أسجل بكلمات من نور وافر الشكر والتقدير والعرفان لأساتذة جامعة المدينة العالمية وموظفيها ومنسوبيها؛ لما يقومون به من جهد في بناء هذا الصرح العلمي العملاق؛ فجزاهم الله خير الجزاء.

ولا أرى أن هذه الكلمات تجازي هذا العمل لتلك الثلة المباركة.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم...

المقدمة

باسم الله العظيم أبدأ، وبقوته أستعين ...

الحمد لله رب العالمين، الذي كشف لعباده المتقين عن أسرار كتابه المبين، وأطلعهم على دقائق كنوزه، وروائع آياته، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، الذي خصه بالمعجزة الخالدة -معجزة القرآن- وعلى آله وأصحابه، الأبرار الأطهار، والتابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين.

وبعد...

فإن "كتاب الله -تعالى- أشرف ما صرفت إليه الهمم، وأعظم ما جال فيه فكر، ومد به قلم؛ لأنه منبع كل علم، ومربع كل هدي ورحمة، وهو أجل ما تنسك به المتنسكون، وأقوى ما تمسك به المتمسكون، من استمسك به؛ فقد علقت يده بحبل متين -ومن سلك سبيله- فقد سار على طريق قويم، وهدي إلى صراط مستقيم، وقد أودع الله -سبحانه- ألفاظ هذا الكتاب العزيز من ضروب الفصاحة، وأجناس البلاغة، وأنواع الجزالة، وفنون البيان، وغوامض اللسان، وحسن الترتيب والتركيب، وعجيب السرد، وغريب الأسلوب، وعذوبة المساغ، وحسن البلاغ، وبهجة الرونق، وطلاوة المنطق، ما أذهل عقول العقلاء، وأخرس ألسنة الفضلاء، وألغى بلاغة البلغاء من العذب، وطاشت به حلومهم، وتلاشت دونه علومهم، وكلت ألسنتهم الذربة، وأقصرت خطبهم المسهبة، وقصائدهم المغربة، وأراجيزهم المعربة، وأسجاعهم المطربة، فعلموا أن معارضته مما ليس في مقدورهم، ولا في وسعهم". [ابن القيم في الفوائد المشوق في علوم القرآن: صـ 5، 6، بدون تأريخ].

وآيات القرآن الكريم، اشتملت على ما في القرآن من أسرار بلاغية، أعجزت الإنس والجن، وأعلن ذلك القرآن مرات عديدة، وطالب العرب بالاستعانة بمن شاءوا من علماء، وفصحاء، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88].

ومن منطلق ذلك الإعجاز وتلك البلاغة: توجهت نفسي للغوص في نقطتين هامتين من نقاط إعجاز القرآن الكريم، وهما: الجرس والإيقاع، والإيحاء والظلال؛ لما لهما من أثر كبير في النفس، وإقناع لها؛ وذلك يتضح من إعمال الفكر في الحصول على الأمر، ليس بصورة مباشرة، وإنما عن طريق قراءة ما وراء اللفظ من معاني وإيحاءات، وكلما أعمل المرء فكره في أمر وحصل عليه بعد ذلك كانت المعلومة أثبت وأحكم في نفس المرء، بخلاف من حصل عليها بسهولة.

والقرآن الكريم جاء موافقًا لنمط العرب في لغاتهم وتصرفها وتحولها واختلافها، واعتمد على هذين السبيلين- الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال- في طرق الحوار وعرض الأحداث.

أسباب اختيار الموضوع:

وقد كان اختيار هذا الموضوع مرتكزًا على أسباب، خلاف ما سبق، أهمها:

أولًا: الرغبة النفسية في أن أكون في معية القرآن الكريم؛ حتى أنعم بما فيه من حلاوة، وجمال، وأرتوي بما فيه من بلاغة عالية، تعلم البلغاء، والأدباء، وما أحلاها من معية، وما أحلاه من جمال، وما أحلاها من بلاغة معجزة أخاذة.

ثانيًا: الرغبة في الاطلاع على ما ذكره مفسرو آي الكتاب الحكيم، تعليقًا على ما به من جرس وإيقاع وإيحاء وظلال؛ حتى أنمي روح الفهم البلاغي الصحيح لمقاصد آيات القرآن الكريم البلاغية.

ثالثًا: الجمع بين ما ذكره علماء البلاغة، والتفسير، واللغة؛ حيث اشترك هؤلاء العلماء في كثير من المواطن، اشتراكًا يدعو للتأمل والنظر، وكان الاختلاف بينهم قليلًا.

رابعًا: السمة المميزة لآيات القرآن وما لها من ظل أو إيحاء، من اختيار للألفاظ التي تناسب المقام والحال، وما في تلك الآيات من قراءة نفسية لمكنونات النفس، أو الإعجاز النفسي، الذي بهر العقول، وأخذ القلوب.

أهمية الموضوع في الدراسات البلاغية والنقدية: ترجع أهمية هذا البحث إلى أنه

يتعلق بموضوع هام –الجرس والإيقاع، الإيحاء والظلال– من البلاغة العربية، وكذلك يتناول القرآن الكريم، وما في دراسة هذا الموضوع في القرآن من بيان الأغراض والأسرار البلاغية لآيات الذكر الحكيم، وسر هذا الخطاب المعبر بظله وإيحائه، وقراءة النفس البشرية بميولها واتجاهاتها، وسر اختيار بعض الكلمات والتراكيب المعبرة عن ذلك، للوصول إلى بيان الإعجاز البلاغي في هذه الآيات.

ولما وجدت أن هذا المجال يصلح لإلقاء الضوء عليه بنوع من التركيز آثرت الكتابة في هذا الموضوع؛ لتعم الفائدة، وتصل الفكرة منفردة بلا مزاحمة من أفكار أخر لها فتتضح أيما وضوح.

هذا: وإن كان التوفيق حليفي؛ فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن كانت الأخرى، فالتقصير مني ومن الشيطان، ونسأل الله السلامة من الذلل والخلل.

مشكلة البحث:

إن الناظر إلى القرآن الكريم وبلاغته يرى بوضوح صورًا من صور اختيار اللفظ المتناسق مع ظله ومعناه وجرسه، مما يجعل القرآن الكريم في أسمى آيات البلاغة والفصاحة، ولا شك أن إلقاء الضوء على بعض تلك الصور وإظهار مدى إعجازها من الأشياء التي يجب الاطلاع عليها، ولذلك سيكون البحث مجيبًا عن بعض التساؤلات:

1- ما مفهوم الجرس والإيقاع، لغة واصطلاحًا؟

2- ما مفهوم الإيحاء والظلال، لغة واصطلاحًا؟

3- هل ورد الجرس والإيقاع، والإيحاء والظلال بكثرة في القرآن الكريم؟

4- ما أهم المواطن التي يكثر فيها الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال؟

5- لماذا يستخدم الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال؟

أهداف البحث:

سيحاول البحث إلقاء الضوء على الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال، وكذلك الإجابة على مشكلة البحث، وسيهدف بصور عامة إلى:

- بيان مفهوم الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال.
- إلقاء الضوء على بعض مما ورد في القرآن من جرس وإيقاع وإيحاء وظلال.
- بيان أهم المواطن التي يكثر فيها الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال.
- بيان السبب في استخدام الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال.

أهم الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات السابقة التي تحدثت عن إعجاز القرآن الكريم، فجل المفسرين تحدثوا عن تلك القضية، وكذلك علماء فقه اللغة، في ثنايا حديثهم عن تفسير آيات القرآن الكريم، ولم ينفرد في الحديث عن هذا الموضوع أحد -على حد علمي- وأعظم من كتب من التفاسير وعنون كتابه بما يقارب هذا الموضوع:

1- تفسير في ظلال القرآن، لسيد قطب:

ويتفق هذا التفسير مع بحثي في إلقاء الظلال على ما وراء اللفظ من ظل وإيحاء، وجرس وإيقاع، ولكن بصورة عامة، وتناول مع ذلك الكثير مما تناوله علماء التفسير، ويختلف هذا البحث في أنه انفرد بهذا الموضوع بشيء من التفصيل.

2- دراسة خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، لعبد العظيم المطعني:

وهي دراسة في خصائص القرآن الكريم بكل نواحي البلاغة، وتناول فيها إجمالًا الحديث عن هذا الموضوع، ويختلف هذا الموضوع في إفراد هذا الموضوع بالدراسة والتفصيل في أسباب تلك التعبيرات الرائعة.

3- **الجرس والإيقاع في الفواصل القرآنية،** للدكتور أنسام خضير خليل: المدرس بكلية التربية للبنات جامعة بغداد:

وتناول البحث من الناحية التفسيرية القرآنية في الفواصل فقط، ولم يتعرض للإيحاء والظلال.

4- الجرس والإيقاع في التعبير القرآني، لقاصد ياسر حسين:

وهي دراسة عامة طوف فيها الباحث بين آيات القرآن الكريم، وركز فيها على الفواصل وافتتاحات الصور، ويختلف هذا البحث عنه في أنه يرصد استعمالات الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال في القرآن الكريم استخدامًا مسببًا لقراءة الحالة النفسية للإنسان.

تلك هي أشهر الدراسات التي تناولت هذا الموضوع ومن يضع هذا البحث إلى جوار تلك الدراسات سيجد ما يميز هذا البحث في انفراده، وكذلك ما يميز تلك الدراسات في موضوعها.

منهج البحث:

سيعتمد هذا البحث في منهجه على، المنهج الوصفي التحليلي والجانب النظري؛ لبيان مفاهيم الجرس، والإيقاع، الإيحاء، الظلال، وهذا هو الجانب الوصفي.

وكذلك الجانب التحليلي لبعض نصوص القرآن الكريم التي تمتاز بإيحاءاتها المعبرة وظلالها المؤثرة.

وسيجمع البحث بين المنهج الوصفي والجانب التحليلي.

هيكل البحث:

سيتكون البحث -بمشيئة الله تعالى- من، مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة ومراجع، وفهارس.

وسأتناول في المقدمة الحديث عن الموضوع وأهميته، وسبب اختياره.

وسيتكلم تمهيد البحث عن وجه إعجاز القرآن.

والفصل الأول: سيتناول الجرس والإيقاع، تعريفًا ثم صورا منه في القرآن الكريم.

والفصل الثاني: سيتناول الإيحاء والظلال تعريفًا، ثم صورا منه في القرآن الكريم.

والخاتمة: وستتناول الحديث عن أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال الدرس، والمقترحات، وما يستجد من موضوعات وثيقة الصلة بهذا الموضوع.

تقسيمات البحث:

المقدمة، وستتناول الموضوع وأسباب اختياره، ومشكلة البحث، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، ومنهج البحث، وتقسيمات البحث.

التمهيد: وسيتناول وجه إعجاز القرآن الكريم.

والفصل الأول: سيتناول تعريف الجرس والإيقاع، ونماذج له من القرآن الكريم.

والفصل الثاني: سيتناول تعريف الإيحاء والظلال، ونماذج له من القرآن الكريم.

الخاتمة: وسأتناول فيها، أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث، والموضوعات التي أثارها البحث.

والفهارس، وسأتناول فيها فهارس القرآن، والشعر، وأهم المراجع، والفهرس العام للبحث.

التمهيد: وجه إعجاز القرآن[1]

إن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، وهي إما حسية وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية؛ لبلادتهم، وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية؛ لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراها ذووا البصائر، كما قال –صلى الله عليه وسلم–: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان ما أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا"[2]، قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون؛ يدل على صحة دعواه، وقيل: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار؛ كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق، يشاهد كل من جاء بعد الأول مستمرًا...[و] كما ثبت كون القرآن معجزة نبينا –صلى الله عليه وسلم– وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز، وقد خاض الناس في ذلك كثيرًا، فبين محسن ومسيء، فزعم قوم أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وأن العرب كلفت في ذلك مالا يطاق في ذلك ما لا يطاق، وبه وقع عجزها، وهو مردود؛ لأن ما لا

(1) السيوطي الحافظ جلال الدين السيوطي في الإتقان في علوم القرآن:(4/3-23)، تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية، بيروت لبنان، سنة: 1418هـ، 1997م.

(2) أخرجه البخاري، وينظر فتح الباري، لابن حجر، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل:(14/186). وعمدة القاري، شرح
صحيح البخاري، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل: (29/59،58). وشرح ابن بطال، الباب العاشر: 19/283، 437). الديباج، على مسلم:(1/173،174). وفيض القدير:(5/494).

يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدي به، والصواب ما قاله الجمهور: أنه وقع بالدّال على القديم، وهو الألفاظ.

ثم زعم النظام[1] أن إعجازه بالصُّرفة، أي: أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم وكان مقدورًا لهم، لكن عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات، وهذا قول فاسد بدليل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2]، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم... وأيضًا فيلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال التحدي، وخلو القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن... وقال قوم: وجه إعجازه ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلية، ولم يكن ذلك من شأن العرب، وقال آخرون: ما تضمنه من الإخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها، وقال آخرون: ما تضمنه من الإخبار عن الضمائر، من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل؛ كقوله: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[4].

وقيل[5]: وجه إعجازه ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه

(1) النظام: "ت 200هـ وبضع وعشرون": هو أبو إسحاق إبراهيم بن يسار النظام، شيخ الجاحظ، وأحد رؤوس المعتزلة، وإليه
تنسب الفرقة النظامية، توفي في خلافة المعتصم. [السيوطي في الإتقان:(6/4 هامش رقم: 1)].

(2) الإسراء: 88.

(3) آل عمران: 122.

(4) المجادلة: 8.

(5) القائل: القاضي أبو بكر. انظر الإتقان:(8/4).

النظم المعتاد في كلام العرب، ومباين لأساليب خطاباتهم... ولهذا لا يمكنهم معارضته... ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التي أودعها في الشعر؛ لأنه ليس مما يخرق العادة، بل يمكن استدراكه بالعلم والتدريب والتصنع به، كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحِذق في البلاغة، وله طريق تُسلك، فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى، ولا إمام يُقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقًا... وقيل[1]: وجه الإعجاز: الفصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب، وقيل[2]: وجه الإعجاز: راجع إلى التأليف الخاص به، لا مطلق التأليف، بأن اعتدلت مفرداته تركيبًا وزنة، وعلت مركباته معنى؛ بأن يوضع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى.

وقيل[3]: الصحيح الذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه، أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، وذلك أن الله أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته، أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحدًا من البشر لا يحيط بذلك، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله، فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط.

ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولًا، ثم ينظر فيها فيغير فيها ... وهلم جرًا، وكتاب الله- تعالى- لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد.

ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وقامت الحجة على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب

(1) القائل الإمام فخر الدين: انظر الإتقان:(8/4).

(2) القائل الزملكاني: انظر الإتقان:(8/4).

(3) القائل ابن عطية: انظر الإتقان: (8/4).

فصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة موسى بالسحر، وفى معجزة عيسى بالأطباء؛ فإن الله إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما تكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر قد انتهى في مدة عيسى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في زمن محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وقيل[1]: وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها في جميعه، استمرارًا لا يوجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم، لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود... وقيل[2]: الجهة المعجزة في القرآن تعرف بالتفكير في علم البيان، وهو كما اختاره جماعة في تعريفه: ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى، وعن تعقيده، وتعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال؛ لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظه، وإلا لكانت قبل نزوله معجزة، ولا مجرد تأليفها؛ وإلا لكان كل تأليف معجزة، ولا إعرابها؛ وإلا لكان كل كلام معرب معجزًا، ولا مجرد أسلوبه؛ وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر به معجزًا، والأسلوب الطريق، ولكان هذيان مسيلمة معجزًا؛ لأن الإعجاز يوجد دونه[3]...، ولا بالصرف عن معارضتهم؛ لأن تعجبهم كان من فصاحته؛ ولأن مسيلمة... وغيره قد تعطوها فلم يأتوا إلا بما تمجه الأسماع، وتنفر منه الطباع... وبتلك الأحوال أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء، فعلى إعجازه دليل إجمالي، وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها، فغيرها أحرى... وقيل[4]: إعجاز القرآن من وجهين؛ أحدهما: إعجاز يتعلق بنفسه، والثاني: بصرف الناس عن معارضته؛ فالأول: إما أن يتعلق بفصاحته وبلاغته، فلا يتعلق بعنصره

(1) القائل حازم في منهاج البلغاء. الإتقان: (9/4).

(2) القائل المراكشي، في شرح المصباح. الإتقان: (9/4).

(3) أي: الأسلوب.

(4) القائل: الأصفهاني في تفسيره. الإتقان: (10/4).

الذي هو اللفظ والمعنى؛ فإن ألفاظه ألفاظهم، قال تعال: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [1]، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾ [2]، ولا بمعانيه؛ فإن كثيرًا منها موجود في الكتب المتقدمة، قال تعال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [3]، وما هو في القرآن من المعارف الإلهية، وبيان المبدأ والمعاد، والإخبار بالغيب، فإعجازه ليس براجع إلى القرآن من حيث هو قرآن، بل لكونها حاصلة من غير سبق تعليم وتعلم، ويكون الإخبار بالغيب إخبارًا بالغيب؛ سواء كان بهذا النظم أو بغيره موردًا بالعربية أو بلغة أخرى، بعبارة أو بإشارة، فإذن بالنظم المخصوص صورة القرآن واللفظ والمعنى عنصره... قال: فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص...

وقيل[4]: سئل[5]... عن موضع الإعجاز من القرآن؟، فقيل: هذه مسألة فيها حيف على المعنى، وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان؟، فليس للإنسان موضع من الإنسان... كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء فيه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وهدي لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه؛ فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده.

وقيل[6]: ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة، لكن صعب عليهم تفصيلها، وصغَوا إلى حكم الذوق... ثم قيل:... في إعجاز القرآن وجه ذهب عنه الناس، وهو صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له القلب، من اللذة والحلاوة في حال، ومن

(1) يوسف: 1.

(2) الشعراء: 195.

(3) الشعراء: 196.

(4) أبو حيان التوحيدي. انظر الإتقان: (12/4).

(5) بُندار الفارسي.

(6) الخطابي محمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، في كتابه: بيان إعجاز القرآن. انظر الإتقان: (12/4).

الروعة والمهابة في حال آخر، ما يخص منه إليه... وقيل[1]: اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهًا كثيرة كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءًا واحدًا من عشر معشاره، فقال قوم: هو الإيجاز مع البلاغة، وقال آخرون: هو البيان والفصاحة، وقال آخرون: هو الرصف والنظم.

وقال آخرون: هو كونه خارجًا عن جنس كلام العرب من النظم، والنثر، والخطب، والشعر، من كون حروفه في كلامهم، ومعانيه في خطابهم وألفاظه من جنس كلماتهم، وهو بذاته قبيل غير قبيل كلامهم، وجنس آخر متميز عن أجناس خطابهم، حتى إن من اقتصر على معانيه، وغير حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته؛ فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه.

وقال آخرون: هو كون قارئه لا يكل، وسامعه لا يمل، وإن تكررت عليه تلاوته، وقال آخرون: هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية، وقال آخرون: هو بما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع، وقال آخرون: هو كونه جامعًا لعلوم يطول شرحها، ويشق حصرها. ا- هـ

وقيل[2]: أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد على انفراده؛ فإنه جمع ذلك كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده، مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق، فمنها الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعهم، سواء المقر والجاحد، ومنها: أنه لم يزل ولا يزال غضًا طريًا في أسماع السامعين، وعلى ألسنة القارئين، ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبًا في كلام البشر، ومنها جعله آخر الكتب غنيًا عن غيره، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد لا يحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى

(1) ابن سراقة. انظر الإتقان: (12/4).

(2) الزركشي في البرهان. انظر الإتقان: (15/4).

هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [1].

وأقول: إن الوجوه المعجزة للقرآن كثيرة، لا يستطيع أيُّ بشر حصرها، منها: ما عرفه الناس، ومنها ما سيظهر في الأيام القادمة؛ لأن القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان، ولا أميل إلى القول بالصرفة؛ لما سبق بيانه من الرد على من قال بها.

وفي هذه الدراسة -إن شاء الله- سأحاول -قدر طاقتي- بيان إعجاز القرآن الكريم من خلال إلقاء الضوء على ما في بعض الآيات من جرس وإيقاع وظل وإيحاء.

فإن وفقت -وآمل ذلك- فهذا فضل الله يمنحه من يشاء، وإن لم أوفق، فهذا مني ومن الشيطان، ويكفيني ما قضيته مع كتاب الله من أوقات أراحت قلبي، وأقرت عيني، ونورت بصيرتي، وطمأنت نفسي.

والله -تعالى- أسأل التوفيق والرشاد.

(1) النمل: 76.

الفصل الأول: الجرس والإيقاع

الجرس: إجمال الخطاب الإلهي الوارد على القلب بضرب من القهر، ولذلك شبه النبي -صلى الله عليه وسلم- الوحي بصلصلة الجرس، وبسلسلة على صفوان، وقال: إنه أشد الوحي، فإن كشف تفصيل الأحكام من بطائن غموض الإجمال في غاية الصعوبة[1].

[و] جرس: ما سمعنا له جرْسًا ولا همسًا، وهما: الخفي من الصوت وسمعت جرس الطير وهو صوت مناقيرها إذا نقرت... وجَرَسَ الكلام: نغم به، والحروف كلها مجروسة إلا أحرف اللين[2]. والجرس: من طرق الدلالة في اللفظ القرآني، بل من أهمها.

والإيقاع: "هو تردد ارتسامات سمعية متجانسة بعد فترات ذات مدى متشابه"، فيمكن التحصيل على الإيقاع بوساطة وسائل جد مختلفة[3].

[و] إن القرآن حين يختار لفظًا تجده دالًّا على معناه بالجرس، أو بالظل، أو بالجرس والظل معًا، وفي هذا المنهج يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأوقع من الفصاحة اللفظية، اللذين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن أعظم مزايا القرآن[4].

والفروق بين هذه المواضع جدّ دقيقة، قد يصعب العزل بينها، ولكنها سمة من سمات التعبير القرآني[5].

ولنأخذ- الآن- في ذكر بعض النماذج التي وجدت في القرآن الكريم.

---

(1) الجرجاني، على بن محمد بن على، التعريفات حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الإبياري، طبعة دار الريان للتراث، سنة 1403 هـ : ص105.

(2) الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في أساس البلاغة، مادة جلب، تقديم، د/محمود فهمي، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، سنة 2003م: (118/1)، مادة جرس.

(3) جان كانيتنو: دروس في علم الأصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي: ص 197.

(4) سيد قطب في كتابه: النقد الأدبي أصوله ومناهجه: ص 39.

(5) المطعني، عبد العظيم إبراهيم أحمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: (1/ 262)، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، تاريخ الإيداع في دار الكتب، 1992. عن النقد الأدبي أصوله ومناهجه، لسيد قطب: ص39.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (1).

والهدف من الآية الإنكار على المتقاعدين عن الجهاد، واستثارة همهم للغزو في سبيل الله؛ لأنهم كلما دعوا إلى القتال تراخوا وفترت عزماتهم، فجاءت كلمة " اثَّاقَلْتُمْ" تصور المعنى أبدع تصوير؛ لأن المتثاقل يقاوم حركات الرافعين له، كلما رفع تساقط وهوى إلى الأرض، والذين قعدوا عن الجهاد مثلهم مع الداعي مثل المتثاقل عن رافعيه، هذه صورة يدركها الخيال، ومنظر ماثل أمام الناظرين تصوره كلمة واحدة هي " اثَّاقَلْتُمْ" بما تثيره من خيال "ظل"، وبما توحي به نغماتها من رنين "جرس" فهي تتكون–حسب نطقها– من أربعة مقاطع صوتية، وكل مقطع منها مكون من فتح وسكون، والفتح والضم حركة تشبه دعوة الداعي، والسكون على المقطع تملص من تلك الحركات الرافعة، وإخلاد للأرض، ولنا أن نقارن بين الكلمة المدعوين إليها "انْفِرُوا" والكلمة الجانحين هم إليها "اثَّاقَلْتُمْ" فللأولى خفة توحي بمعنى الانطلاق، وللثانية ثقل يوحي باللصوق بالأرض، فبينهما ما بين الحركة السريعة والبطء المتثاقل(2).

وقوله تعالى في الحديث عن المعرضين عن التذكر: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴾ (3).

وتأمل الصورة تأملًا؛ تدرك منها سر اختيار هذه الكلمات: حمر، ومستنفرة، وفرت، وقسورة، وإذا وصلت إلى ذلك أدركت إلى أي مدى كان الكافرون يعرضون عن الدعوة،

(1) التوبة: 38.

(2) المطعني، عبد العظيم إبراهيم أحمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: (1/ 264)، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، تاريخ الإيداع في دار الكتب، 1992.

(3) المدثر: 49- 51.

ويشردون منها شرودًا بالغًا مداه، كما تشرد الحمر المستنفرة إذا هاجها الصياد أو الأسد المفترس، وهم يشردون منها لما فيها من نذر تطير منها قلوبهم التي غمرها الشيطان بغوايته ونفوسهم التي أسرها الهوى بضلاله. وكلمة "مُسْتَنْفِرَةٌ" تزيد المعنى دقة ووضوحًا؛ لأن من الحمر حمرًا أهلية تأنس إلى من تراه، وليست هذه منها، بل هي مستنفرة تفزعها مجرد الرؤية بله الطلب وتوقع الخطر، وكذلك كلمة "فَرَّت"؛ إذ تبين هذه الكلمة أنهم لشدة إعراضهم لم يشردوا من الداعي ماشين على أقدامهم فوق الأرض، بل طائرين في الفضاء كما يصنع الطير المهيج[1]؛ فتأمل.

وقوله: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

ونقصد في هذا النص قوله: ﴿ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا ﴾؛ لأنها تبين حالة من الأحوال التي لا يجب أن تكون، وهي حالة الإمساك على الزوجة لأجل الإضرار بها، كأن يقول: طلقت، أرجعت قبل انتهاء عدتها. "والضرار مصدر ضارَّ، وأصل هذه الصيغة أن تدل على وقوع الفعل من الجانبين، مثل خاصم، وقد تستعمل في الدلالة على قوة الفعل، مثل: عافاك الله، والظاهر أنها هنا مستعملة للمبالغة في الضر؛ تشنيعًا على من يقصده بأنه مفحش فيه"[3].

---

(1) المطعني، عبد العظيم إبراهيم أحمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: (1/ 264- 265)، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، تاريخ الإيداع في دار الكتب، 1992.

(2) البقرة: 231.

(3) ابن عاشور محمد الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير: (423/2)، الجزء الثاني، طبعة دار حنون للطباعة والنشر، تونس بدون تأريخ.

فإن الضرار الصادر من نفوس تئن تحت وطأة الغل والحقد والرغبة في الانتقام، لا يناسبها إلا لفظ يملأ المكان حركة متبادلة بالضر، وهل لو قال: "ولا تمسكوهن إلا بمعروف أو إحسان" تحس شيئًا من ذلك؟، وهل كنت تقف على بلوغ غيظهم ورغبتهم في الانتقام لولا كلمة: "ضرارًا" الملائمة لجوهم النفسي أدق ملاءمة وأبرعها، المعجزة في مكانها التي لا يضاهيها لفظ آخر؟.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (1).

ونقصد من هذا النص كلمة "يَصْطَرِخُونَ" بالذات؛ لأنها تبين جأرهم باللجوء إلى الله أن يخلصهم مما هم فيه، وهي بجرسها الغليظ الصاخب ورنينها الخشن الصاك، الذي يكاد يخترق صماخ الأذن، تمثل الموقف أدق تمثيل، فإن الصراخ المنبعث من نفوس تئن تحت وطأة العذاب صراخ عال مدو، يختلط بعضه ببعض-بدءًا، ونهاية- ويملأ المكان صخبًا ورنينًا، وإنك لتلحظ أثر الصاد، والطاء في إبراز الصوت بمثل هذه الصورة بمثل هذه الصورة الغليظة؛ فهل كنت تحس شيئًا من ذلك لو وضعت كلمة "يدعون" الهادئة الوديعة مكان "يَصْطَرِخُونَ" – الهادرة العنيفة؟ وهل كنت تقف على بلوغ قلقهم المدى لولا كلمة "يَصْطَرِخُونَ" الملائمة لجوهم النفسي أدق ملاءمة وأبرعها(2).

وقوله: ﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ

(1) فاطر:36، 37.

(2) المطعني، عبد العظيم إبراهيم أحمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: (1/ 263)، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، تاريخ الإيداع في دار الكتب، 1992.

بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1].

ونقصد من هذه الآية كلمة: " تَعْضُلُوهُنَّ"؛ لأنها تبين حالة يجب ألا تكون، وهي حالة من ظلم الولي لمولاته، بمنعها من النكاح بدون وجه صلاح، وهي بجرسها الغليظ الصاخب، ورنينها القوي، وقوتها على اللسان والآذان تمثل الموقف أدق تمثيل.

والعضل: المنع والحبس وعدم الانتقال، فمنه عضَّلت المرأة بالتشديد إذا عسرت ولادتها، وعضَّلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج، والمعاضلة في الكلام: احتباس المعنى حتى لا يبدو من الألفاظ، وهو التعقيد، وشاع في كلام العرب في منع الولي مولاته من النكاح، وفي الشرع: هو المنع بدون وجه صلاح، فالأب لا يعد عاضلًا برد كفء أو اثنين، وغير الأب يعد عاضلًا برد كفء واحد[2].

ولا شك أن: المنع والشدة والحبس الناتج عن جمع العين مع الضاد واللام تبرز هذا المعنى بصورة لطيفة من الإعجاز، ولكي تدرك ذلك فعليك بوضع كلمة أخرى موضعها، فمثلًا إن كان السياق: "فلا تمنعونهن أن ينكحن أزواجهن"، لكانت كلمة المنع أقصر ما تكون في التعبير عن الظلم والشدة المنبعثة من "العضل" والذي يلائم الجو النفسي، ولا أدل على ذلك من تعبيره عن مطلقيهم بـ "أزواجهن"، وهم طالبو المراجعة.

قيل: نهى الله –عز وجل– أولياء المرأة عن عضلها ومنعها من نكاح من رضيته من الأزواج[3].

وإسناد النكاح إلى النساء هنا؛ لأنه هو المعضول عنه، والمراد بأزواجهن طالبو المراجعة

---

(1) البقرة: 232.

(2) التحرير والتنوير: (327/2)، الجزء الثاني.

(3) الماوردي الإمام أبي الحسن علي بن محمد حبيب الماوردي البصري"364-450هـ" في مصحف التهجد، ومعه تفسير الماوردي، المسمى: النكت والعيون،: (235/1)، تحقيق الشيخ/ خضر محمد خضر طبعة: دار الصفوة، الطبعة الأولى، سنة 1413هـ، 1993م.

بعد انقضاء العدة، وسماهن أزواجًا مجازًا باعتبار ما كان؛ لقرب تلك الحالة، وللإشارة إلى أن المنع ظلم؛ فإنهم كانوا أزواجًا لهن من قبل، فهم أحق بأن يُرَجَّعن إليهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾[2].

يقصد من هذه الآية كلمة: "نِحْلَةً"؛ لأنها تبين الحالة التي يجب أن يكون عليها عطاء المرأة، وهي تمثل الموقف تمثيلًا دقيقًا رقيقًا.

فإن العطاء الممنوح للزوجة بلا عوض لا بد أن يكون بطيب نفس من الناحل –وهو الزوج– ومن ولي المرأة، فلا تصبو نفوسهم إليه، وإنما يعطون النساء هذه الصدقات، وهذا المعنى لا يؤدي إلا بهذا اللفظ المعجز، ولعلك لا تدرك هذا المعنى إذا وضعت كلمة أخرى مكان "نحلة"، فلو قيل: وآتوا النساء صدقاتهن عطاءً، فإن هذا العطاء لا يحدد هل هو عطاء بعوض؟، أو عطاء بغير عوض؟ وهل يجب أن تطيب النفس به أو لا؟، فلا شك أن كلمة "نِحْلَة" تلائم أيضًا هذا الجو النفسي.

والنِّحلة –بكسر النون– العطيّة بلا قصد عوض... وسمّيت الصدقات نحلة إبعادًا للصدقات عن أنواع الأعواض، وتقريبًا بها إلى الهدية؛ إذ ليس الصداق عوضًا عن منافع المرأة عند التحقيق، فإنّ النكاح عقد بين الرجل والمرأة قصد منه المعاشرة، وإيجاد آصرة عظيمة، وتبادل حقوق بين الزوجين، وتلك أغلى من أن يكون لها عوض[3]، والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الأزواج؛ لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا، وطيب الخاطر[4].

(1) التحرير والتنوير: (427/2)، الجزء الثاني.

(2) النساء: 4.

(3) التحرير والتنوير: (231،230/3)، الجزء الرابع.

(4) أبو السعود في تفسيره، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، طبعة دار الفكر. تفسير أبي السعود: (482/1).

ولفظ آتوا أمر وفيه صرامة توحي بالحق والجزم واليقين، وهذا الجرس متناغم مع المعنى المراد.

قيل: يُعني أولياء النساء لا الأزواج؛ وذلك أنهم كانوا في الجاهلية لا يعطون النساء من مهورهن شيئًا(1).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (2).

الآية فيها بيان لأسباب قوامة الرجال وحديث عن النساء الصالحات، وبيان لأداة تقويم المرأة الناشز؛ رغبة في سير الحياة الأسرية على خير، والمقصود من الآية ﴿ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾؛ لأنها تبين الحالة التي تكون عليها الزوجة من كراهية للزوج واضطراب وتباعد، وهي بجرسها غليظة وخشنة تمثل الموقف أدق تمثيل، وهذا الجرس مخالف للجرس المستعمل بين زوجين تجمعهما حياة مستقرة لا خلاف فيها ولا نزاع؛ إذ لا يصدر منهما من القول إلاَّ ما هو معجب رائق لطيف، أَلاَ تراه عدل عن تلك المقالة الحسنة الرائقة، إلى مقالة خشنة تلائم هذا المعنى والجو النفسي وهذا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم.

والنشوز: هو معصية الزوج والامتناع من طاعته بغضًا وكراهةً، وأصل النشوز: الارتفاع، ومنه قيل للمكان المرتفع من الأرض نشز، فسميت الممتنعة عن زوجها ناشزًا؛ لبعد هامتها

(1) القائل: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، في كتابه معاني القرآن: ص118، سلسلة تقريب التراث، إعداد ودراسة د/ إبراهيم الدسوقي عبد العزيز، إشراف ومراجعة د/ عبد الصبور شاهين، طبعة مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى سنة 1409هـ، 1989م.

(2) النساء: 34.

وارتفاعها عنه[1].

[و] هذه بعض الأحوال المضادة للصلاح وهو النشوز، أي: الكراهية للزوج، فقد يكون ذلك لسوء خلق المرأة، وقد يكون لأن لها رغبة في التزوج بآخر، وقد يكون لقسوة في خلق الزوج، وذلك كثير[2].

وأيًّا ما كان السبب؛ فإن النفس الكارهة المضطربة المتباعدة تملأ المكان صخبًا ودويًّا، ولا شك أن دور "النون" و "الشين"، و "الزاي" في إبراز هذه الحالة النفسية، دور عظيم لا يؤدى إلا بهذه الحروف وتلك الكلمة، ولا يقوم مقام هذه اللفظة لفظة أخرى، وجرب –إن شئت– سترى اتساع الفرق بينهما، وإعجاز في اختيار الألفاظ المعبرة، وهذه سمة من سمات إعجاز القرآن الكريم.

وقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[3].

ويقصد في هذا النص" إملاق"؛ لأنها تبين ظلمهم بقتل أولادهم خشية الملق، وهي بجرسها

الغليظ الصاخب ورنينها القوي، الذي يخترق الآذان، تمثل الموقف تمثيلًا دقيقًا، وإن كان اللفظ مستعملًا في مجازه، فإن الضيق النفسي الناشئ عن نفوس فقيرة تئن تحت وطأة الفقر الشديد ضيق يناسبه الصخر الأملس المذهب لما في اليد المفقر، وإن كان الناظر إلى أثر "الميم" مع "اللام" و "القاف" في إظهار هذه الشدة المفقرة، ليجد أنه لا يعادل هذه الكلمة كلمة أخرى تؤدي نفس المعنى، فهل يحس القارئ أو السامع شيئًا من ذلك لو وضعت

(1) الماوردي أبي الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي البصري "464 –450هـ"، في تفسيره المسمى النكت والعيون طبعة دار الصفوة، سنة 1413هـ، 1993م: (394/1).

(2) التحرير والتنوير: (41/3)، الجزء الخامس.

(3) الأنعام: 151.

كلمة: "فقر" أو "حاجة" الرقيقة الوديعة، أمام الصخر الأملس "الملق" الشديدة القوية؟!، وهل كنت تقف على بلوغ مدى خوفهم من شدة الفقر لولا كلمة "إملاق" الملائمة لحالتهم، الحاكية لمكنونات نفوسهم.

وملق أصلها: قام على الملقة، وهو: الصخرة الملساء[1].

وقوله: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [2].

ونقصد من هذا النص كلمة: "نَزَغ"؛ لأنها تبين وسوسة الشيطان، وطعنه الذي فرق بين الأخوة، وهي بصوتها المعبر معناها الفائق تمثل موقف التفرقة أدق تمثيل.

ونزغ نزغه، مثل: تَسَغَهَ إذا طعنه ونَخَسَهُ، ومن المجاز: نزغه الشيطان، كأنه ينخسه ليحثه على المعاصي، ونزغ بين الناس: أفسد بينهم بالحث على الشر[3].

وإن النفس التي استسلمت لهذا الشر المدمر، الذي دعاها لمحاولة قتل أخيها نفس سلمت نفسها للشيطان، واستسلمت لأوامره، ويعبر عن هذا الاستسلام "نزغ" بنفس مطربة ليست نفسًا سوية؛ لأنها بعدت عن جادة الحق والصواب، وإن كلمة "نزغ" بجرسها وصوتها وما فيها من خسة، لا يعادلها كلمة أخرى، وإن كلمة "فرق" مثلًا لا تحتوي على الشر الكائن في "نزغ"، وهل كان القارئ أو السامع يقف على مدى ومقدار شر إخوة يوسف في موقفهم معه، وحسدهم له، لولا كلمة: "نزغ" المناسبة لحالتهم النفسية المعبرة عن مكنونات نفوسهم أدق تعبير، فتبارك الله أحسن الناطقين.

وقوله: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [4].

---

(1) أساس البلاغة: (400/2)، مادة: ملق.

(2) يوسف: 100.

(3) الزمخشري في أساس البلاغة: (435/2)، مادة: نزغ، طبعة دار المعارف بمصر.

(4) القصص: 13.

ونقصد من هذه الآية كلمة: "تَقَرَّ"، وما أحلاها وما أجملها بجرسها الرقيق الجميل، ورنينها العذب الذي يكاد يعزف ألحان الحنوّ والعطف من أمٍّ التقت بابنها بعدما فقدته، وهذه الكلمة تشبع الموقف رقة وحنانًا، وتعبر عنه تعبيرًا دقيقًا، وتمثله أفضل تمثيل، وضع كلمة أخرى بنفس المعنى مكانها حتى تدرك الفرق بينهما، وإن الحنان الناشئ من أم حملت ووضعت وربت، حنان يلائمه "قرة العين" التي هي أعلى درجات الحب تمثله "قَرّ" الدالة على الهدوء، ولا أحتاج أمام هذا الإعجاز البلاغي في تخير الألفاظ المعبرة بجرسها علوًّا وانخفاضًا، أن أقول: إن هذا الموقف لا يناسبه إلا هذا اللفظ؛ فهو ملائم معنىً ولفظًا ونفسًا.

وأنقل في هذا الموضع بعض الكلمات الساحرة؛ حيث قال صاحب التحرير والتنوير[1]: وهذه منّة عليه لإكمال نمائه، وعلى أمّه بنجاته فلم تفارق ابنها إلاّ ساعات قلائل، أكرمها الله بسبب ابنها، وعطفُ نفي الحزن على قرّة العين لتوزيع المنّة؛ لأنّ قرّة عينها برجوعه إليها، وانتفاءَ حزنها بتحقق سلامته من الهلاك ومن الغرق، وبوصوله إلى أحسن مأوى؛ وتقديم قرّة العين على انتفاء الحزن مع أنها أخص؛ فيغني ذكرها عن ذكر انتفاء الحزن؛ روعي فيه مناسبة تعقيب ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ ﴾ بما فيه من الحكمة، ثم أكمل بذكر الحكمة في مشي أخته. ا هـ.

[يقال] قرّت عينُه تَقَرُّ: سُرت، قال: "كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا"، وقيل لمن يُسرُّ به: قرة عين... قيل: أصله من القَرّ، أي: البرد فقرت عينه، قيل معناه: بردت فصحت، وقيل: بل لأن للسرور دمعةً بردت فصحت[2].

الفصل الثاني: الإيحاء والظلال

(1) محمد الطاهر بن عاشور في تعليقه على الآية:40 من سورة طه:" فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". التحرير والتنوير: (219/8)، ط دار سحنون للنشر والتوزيع تونس بدون تأريخ.

(2) الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، في: المفردات في غريب: ص399، مادة: قرّ، طبعة دار الخلود للتراث.

الإيحاء: مصدر أوحى الرباعي.

[و] أوحى إليه وأوْمَى بمعنى، ووحيت إليه وأوحيت، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره[1].

[و] والإيحاء: إلقاء المعنى في النفس بخفاء وسرعة[2].

[و] وأصل الوحي الإشارة السريعة، والتضمين والسرعة، قيل: أمرٌ وحيٌ، ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز، والتعريض وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة بعض الجوارح، وبالكتابة... ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحي... وذلك إما برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه، كتبليغ جبريل-عليه السلام- للنبي في صورة معينة، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله، وإما بإلقاء في الروع... وإما بإلهام... وإما بتسخير... وإما بمنام[3].

ومما سبق يتضح أن: الوحي أو الإيحاء يدور حول: أشار وأومأ، وكلمه بكلام خفي على غيره، وأرسل وبعث، وألهم، مع اقتران بالسرعة في المعنى الأصلي.

وأصل الظل: "ضوء الشمس إذا استترت عنك بحاجز، جمعها: ظلال، والظل من كل شيء: شخصه، وفي الفلك: منطقة الظلام التام التي تنشأ عندما يحجب جرم سماوي معتم أشعة جرم سماوي مضيء"[4].

ثم استخدم الإيحاء والظلال في الكلام المفهوم من استخدام لفظ معين يشير إليه ويومئ إليه فيؤدي هذا المعنى الظل، ولا تجد لفظًا آخر يستطيع أن يوحي إلى هذا المعنى الخفي.

وإذا تقرر هذا، "فقد احتوى الكتاب العزيز على جمل من ذلك أفرغت في قالب الجمال، وأترعت لها كؤوس الإحسان والإجمال، وأتت على معظمها وأجلها، واستوفت

(1) أساس البلاغة: (496/2)، مادة: وحي.

(2) التعريفات: ص59، مادة الإيحاء.

(3) المفردات في غريب القرآن: ص516. مادة: وحي.

(4) المعجم الوجيز: ص186، مادة: ظل.

نصاب ملكها"[1].

[و] "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[2].

وإن مظاهر الإعجاز البلاغي في ألفاظ القرآن واضحة في إيحائها وظلالها، وسأوضح – قدر استطاعتي– هذا الإعجاز من خلال الآيات القادمة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[3].

الهدف من الآية: "بيان أن المكذبين بآيات الله والمستكبرين عن عبادته لن يحظوا بالقبول عند الله، ولن يدخلوا الجنة، وقد رتب حصول هذه المنافع لهم على أمر مستحيل هو دخول الحبل الغليظ في الثقب الدقيق لآلة الخياط، والمرتب على المستحيل مستحيل كذلك، لكنه لم يذكر لفظ "الحبل" بل وضع موضعه لفظ "الجمل" وهو مشترك لفظي بين الحبل والحيوان الضخم المعروف، وإنما أوثر لفظ "الجمل" مرادًا منه "الجمل" لأن دلالته ليست في الحبل مهما كان غليظًا لا يبلغ ضخامة الجمل، وهو–أي الحبل– متفاوت في الدقة والغلظ، لو صرح به لوقع في الوهم أنه الحبل الدقيق، فتقترب المسألة حينئذ من الإمكان، بيد أن هذا الإمكان غير متصور مع "الجمل" ذلك الحيوان الضخم الذي نشاهده مثل الصخرة العظيمة، ولتأكيد حرمانهم وشقائهم اختاره القرآن ليقطع عندهم كل أمل ما داموا في شقاق مع ربهم، وإن السامع ليقع في خلده حين يسمع هذه الآية أن المراد بـ "الجمل" هو الحيوان ذلك

(1) ابن القيم في الفوائد المشوق إلى علوم القرآن الكريم: ص9،10، طبعة مكتبة المتنبي، بدون تأريخ.

(2) عبد القاهر الجرجاني" ت 471هـ، في كتابه دلائل الإعجاز: ص38، بتصحيح الشيخ/ محمد عبده، والشيخ/ محمد محمود

التركزي الشنقيطي، ونشره السيد محمد رشيد رضا، الطبعة الثانية، بمطبعة المنار، سنة 1331هـ.

(3) الأعراف: 4.

الضخم، ولا يكاد يتصور منه "الحبل الغليظ" لاشتهاره في الأول، وندرة إطلاقه على الثاني، فهذا جدير بأن يسمى معنى ثانيًا للفظ يدركه الخيال، واللفظ –هنا– دال على هذا المعنى بظله كما ترى"[1].

وقولـــه: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

"الآية عطف حكم على حكم، وتشريع على تشريع؛ لقصد زيادة الوصاة بحسن المعاملة في الاجتماع والفرقة، وما يتبع ذلك من التحذير الذي سيأتي بيانه"[3].

فجاءت كلمة "تمسكوهن ضرارًا"، تصور المعنى أبدع تصوير؛ لأن الممسك زوجته لأجل الضرر كثير، وألوان وأشكال الضرر كثيرة ومختلفة، والإمساك للضرر كثير من جهة الأزواج.

وقوله: "ولا تمسكوهن ضرارًا" تصريح بمفهوم: "فامسكوهن بمعروف"؛ "إذ الضرار ضد المعروف، وكأن وجه عطفه مع استفادته من الأمر بضده التشويه بذكر هذا الضد؛ لأنه أكثر أضداد المعروف يقصده الأزواج المخالفون لحكم الإمساك بالمعروف، مع ما فيه من التأكيد، ونكتته تقرير المعنى المراد في الذهن بطريقتين غايتهما واحدة... والضرار مصدر ضارَّ ، وأصل هذه الصيغة أن تدل على وقوع الفعل من الجانبين، مثل: خاصم، وقد تستعمل في الدلالة على قوة الفعل مثل: عافاك الله، والظاهر أنها هنا مستعملة للمبالغة في الضر؛ تشنيعًا على

(1) المطعني، عبد العظيم إبراهيم أحمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: (1/ 263)، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، تاريخ الإيداع في دار الكتب، 1992.

(2) البقرة: 231.

(3) التحرير والتنوير: (421/2)، الجزء الثاني.

من يقصده بأنه مفحش فيه"[1].

ولنا أن نقارن بين الكلمة المدعو إليها "بمعروف"، والكلمة المنهي عنها "ضرارًا"، فللأولى خفة، توحي بمعنى العطف والألفة والمحبة الذي هو أساس الحياة الزوجية، وللثانية ثقل يوحي بسوء الحال؛ لقلة علم أو فضل، أو نقص وقلة مال وجاه، وهذه المعاني وإن لم تكن واضحة ففي ظل الكلمة وإيحائها ما يدل على ذلك أكثر، وما كان هذا إلا قطرة من بحر الإعجاز القرآني.

وقوله: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [2].

الهدف من الآية الإنكار على من يأخذ شيئًا مما أعطى زوجته من مهر وغيره، وتنفير نفوسهم من ذلك؛ حيث سماه القرآن "بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا"، فجاءت كلمة "بهتانًا" تصور المعنى أبدع تصوير؛ لأن من يأخذ هذا المال بالكذب الذي يبهت الوجه ويغير لونه، فيتركه في دهشة وحيرة، وفيها زيادة تشنيع وتنفير على من يقوم بهذا الفعل.

"وإنّما جعل هذا الأخذ بهتانًا؛ لأنّهم كان من عادتهم إذا كرهوا المرأة وأرادوا طلاقها، رموها بسوء المعاشرة، واختلقوا عليها ما ليس فيها؛ لكي تخشى سوء السمعة فتبذل للزوج مالا فداء ليطلّقها"[3].

ولعل المقارنة بين كلمة "أخذ" الخالية من البهتان، وبين "أخذ" المقرنة بالبهتان، توضح أن الأخذ الأول سهل لا يعطي كثيرًا من الإيحاء والظلال بخلاف الثاني، فإنه مقترن بمعاني الكذب والافتراء، الذي يبهت سامعه؛ لفظاعته وسوء موضعه.

وقوله: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ

(1) التحرير والتنوير: (423/2)، الجزء الثاني.

(2) النساء: 20.

(3) التحرير والتنوير: (423/2)، الجزء الثاني.

مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾ (1).

[الهدف من الآية] ذكر تشريع في حقوق الرجال والمجتمع العائلي... فقوله: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أصل تشريعي كُلِّيّ تتفرّع عنه الأحكام التي في الآيات بعده، فهو المقدّمة(2).

كما تصور الآية حال الزوجات مع أزواجهن بين صالحات قانتات، وبين ناشزات.

وجاءت كلمة "نشوزهن" تصور المعنى أبدع تصوير؛ لأن الناشز تقاوم محاولات التقويم، فكلما أراد زوجها تقويمها لم تستجب لذلك، واللاتي مثلها مثل ما نشز من الأرض وارتفع منها، فأصبح خارجًا على نظام الاستواء.

وهذه صورة يدركها الخيال، ومنظر ماثل أمام الناظرين تصورها كلمة واحدة، وهي "نشوزهن"، بما تثيره من خيال "ظل"، وبما توحي به نغماتها من رنين "جرس"، وبما توحي إليه من مخالفة؛ فهي مكونة من ثلاثة مقاطع صوتية، مقطعان من حركتين وسكون، ومقطع من حركة وسكون، وبها الضم ثلاث مرات والفتح مرة وكسر بين المقاطع، بالسكون [ضمتان وسكون، وفتح وضم ثم سكون، وضم وسكون]، وتوحي هذه المقاطع بالترفع كما توحي بالاضطراب والتباعد.

ولنا أن نقارن بين كلمة: ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ ﴾، التي أُمر النساء بالامتثال إليها، وبين: "نشوزهم..."، التي يحذر القرآن النساء منها، فالكلمة الأولى: بها خفة وتتابع في الكلمات الخفيفة ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ ﴾، والثانية: بها

(1) النساء: 34.

(2) التحرير والتنوير: (37/3)، الجزء الخامس.

ثقل يوحي بالترفع والعلو المخلوط بالغرور، وشتان بين الهدوء الناشئ عن الكلمات الأولى، والاضطراب الناشئ عن الكلمة الثانية، وهذا الاختيار من القرآن الكريم ما عجز عنه البشر، فتبارك الله أحسن الناطقين.

وقوله: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [1].

الآية توضح وجدان يعقوب ريح يوسف، وخوفه من أبنائه أن يرموه باختلال العقل، والخرف، إن صرح لهم بذلك. وجاءت كلمة "تفندون" تصور المعنى أبدع تصوير؛ لأن أصل فند: يقال للضّخم الثقيل، كأنه فِنْدٌ، وهو الشمراخ من الجبل... قيل فيه: "أبطأ من فندٍ"؛ لتثاقله في الحاجات، وفلان مفندٌ ومفنّدٌ: إذا أنكر عقله من هرم وخلّط في كلامه[2].

وكأن منكَر العقل ثقيل ضخم لا يقضي حاجة من الحاجات، وهذه صورة مدركة بالخيال، ماثلة أمام الناظرين، تصورها كلمة واحدة "تفندون" بما توحيه من تثاقل وضخامة.

وقد أحسن اختيار هذا اللفظ؛ حيث عبر عن مطلوبة أحسن تعبير، وصوره أجمل تصوير.

وقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [3].

الآية بيان لمنزلة الوالدين؛ حيث تبعت العبادة، ونهى عن جرح مشاعرهما ولو بأقل الألفاظ، وأمر بإحسان القول لهما.

وجاءت كلمة "أف" تصور المعنى أحسن تصوير؛ لأن التضجر والكره يظهران في حركات الإنسان وعلى قسمات وجهه، فنهى عن فعل وذكر لفظ معبر ومختصر.

---

(1) يوسف: 94.

(2) أساس البلاغة: (215/2)، مادة: فند.

(3) الإسراء: 23.

وانظر إلى تلك الصورة الماثلة في الخيال أمام الناظرين –التي تعبر فيها عن التضجر والتأفف من أحن الناس عليه– فتراها لا يحاكيها إلا لفظ "أف".

[وكلمة] أف: أصل الأف كل مستقذر من وسخ وقلامة ظفر وما يجرى مجراهما، ويقال ذلك لكل مستخف استقذارًا له... وقد أففت لكذا؛ إذا قلت ذلك استقذارًا له، ومنه قيل للضجر من استقذار شيء[1].

وليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما "أف" خاصة، وإنما المقصود النهي عن الأذى الذي أقله الأذى باللسان بأوجز كلمة، وبأنها دالة على أكثر من حصول الضجر لقائلها دون شتم أو ذم، فيفهم منه النهي عما هو أشد بفحوى الخطاب بالأولى[2].

[و] فائدة ذكر "عندك" أنهما يكبران في بيته وكنفه، ويكونان كلًّا عليه، لا كافل لهما غيره، وربما ناله منهما من المشاق ما كان ينالهما منه في حال الصغر[3].

ولنا أن نقارن بين الكلمة المنهي عن قولها ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾، والكلمة المدعو إليها ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾؛ فالثانية خفيفة خفة ملاحظة، والأولى ثقيلة ثقل معناها الأصلي وكل منهما معجز في بلاغته وفي موضعه الذي لا يقوم مقامه لفظ آخر.

وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾[4].

والهدف من الآية: الإنكار على العاكفين على التماثيل لأجل عبادتها، والتعجب من هذا الفعل، وجاءت كلمة "عاكفون" تعبر عن المعنى أبدع تعبير، وتصوره أجمل تصوير؛ لأن العاكف على الشيء مداوم عليه، وتوحي أيضًا بالعبادة؛ فليس المراد العكوف فقط، يالروعة القرآن!!؛ حيث قرن العكوف بالتماثيل!.

---

(1) المفردات في غريب القرآن: ص19، مادة: أف.

(2) التحرير والتنوير: (70/7)، الجزء الخامس عشر.

(3) زكريا الأنصاري شيخ الإسلام الإمام أبي يحيى زكريا الأنصاري، في كتابه: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: ص233، تحقيق الشيخ/ محمد علي الصابوني، طبعة مكتبة الصابوني، الطبعة الأولى، سنة 1405هـ، 1985م.

(4) الأنبياء: 52.

والإشارة إلى التماثيل؛ لزيادة كشف معناها الدال على انحطاطها عن رتبة الألوهية، والتعبير عنها بالتماثيل يسلب عنها الاستقلال الذاتي[1].

وانظر إلى تلك الصورة التي يدركها الخيال، والمنظر الماثل أمام الناظرين الذي تصوره كلمة واحدة هي "عاكفون"، فالقيام والمداومة معنى أساس، والإيحاء والظل يتمثل في معنى العبادة، وهو مفهوم من تعدية "عاكفون" باللام "أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ".

[و] العكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له... ويقال: عكفته على كذا، أي: حبسته[2].

وقوله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [3].

الهدف من الآية التنبيه على الآداب الأخلاقية في معاملة الناس، فنهى لقمان ابنه عن احتقار الناس، والاختيال عليهم، وهذا النهي يوحي بخلاف النهي، ويقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس، وجعل نفسه كواحد منهم.

وهذه صورة تتضح في بعض المتكبرين، تتضح عن طريق الظل والإيحاء، هذه الصورة البغيضة لإنسان يتكبر على أخ له في الإنسانية، ويرى من نفسه إنسانًا مميزًا عليه.

[ومعنى التصعير] لا تمل خدك عن الناس من قولك رجل أصعر[4]، وانظر إلى ظل الكلمة وإيحائها تجده ينهى عن التصعير، والنهي عام وشامل لكل ألوان احتقار الناس.

والمعنى : لا تحتقر الناس، فالنهي عن الإعراض عنهم احتقارًا لهم لا عن خصوص مصاعرة الخد، فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك، فهو قريب من قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [5]، إلا أن هذا تمثيل كنائي، والآخر كناية لا تمثيل فيها[1].

---

(1) التحرير والتنوير: (84/8)، الجزء السابع عشر.

(2) المفردات في غريب القرآن: ص343، مادة: عكف.

(3) لقمان: 18.

(4) معاني القرآن: ص279.

(5) الإسراء: 23.

[و] صعر: الصّعر ميل في العنق، والتصعير: إمالته عن النظر كبرًا... وكل صعب يقال له مصعر، والظليم أصعر خلقة[2].

ولا يخفى ما في اختيار هذا اللفظ من إيجاز وإعجاز يعجز أي لفظ آخر أن يقوم بنفس هذه المعاني، ولكنه اختيار من حكيم خبير.

وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [3].

الغرض من الآية التحذير من الحب المفرط للمال والولد؛ لأن هذا الحب قد يكون سببًا في بعد الإنسان عن ربه، وعقابه في الآخرة.

وجاءت كلمة "فتنة" تصور المعنى أبدع تصوير؛ لأن المحب للمال والولد مفتون بهما فتنة تؤدي إلى عذاب الله.

[و] وأصل الفتن: إدخال الذهب النار؛ لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار... وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالًا... وقوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ [4]، فقد سماهم هاهنا فتنة اعتبارًا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم[5].

[و] "إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ": أي بلاء ومحنة؛ لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة، ولا بلاء أعظم منهما[6].

=

(1) التحرير والتنوير: (166/10)، الجزء الحادي والعشرون.

(2) المفردات في غريب القرآن: ص281، مادة: صعر.

(3) التغابن: 15.

(4) الأنفال: 28.

(5) المفردات في غريب القرآن: ص371، 372، مادة: فتن، وانظر التعريفات: ص212، مادة: الفتنة.

(6) محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي" 654- 754هـ، في كتابه: البحر المحيط: (10192)، مراجعة/

صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر، سنة 1412هـ، 1992م.

وفي اختيار هذه الكلمة في هذا الموضع بلاغة عظمى وإعجاز مبهر، فلا يضاهي هذه الكلمة في هذا الموضع كلمة أخرى؛ لأنه كتاب من لدن حكيم خبير.

الخاتمة

أهم النتائج:

مما سبق يتضح لنا أن:

1- الإيحاء والظلال ورد في القرآن الكريم كثيرًا، وأن الغرض منه تنشيط الذهن، وإيصال معنى بصورة تجعل العقل ينشط.

2- كثر الجرس والإيقاع والإيحاء والظلال في تصور الأمور التي تدل على الشقاق، وفي تصوير أحوال الأسرة، وفي تصوير مشاهد يوم القيامة وفي بيان الأمور التي يراد بيان بعدها.

3- استخدم الجرس والإيقاع وهو -وإن كان بعيدًا وصعبًا- وإنما كان من مواطن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فاللفظ الحقيقي في موطنه أفضل من اللفظ المجازي؛ لأنه يؤدي دوره فيه، واللفظ المجازي في موضعه أفضل وأدق من اللفظ الحقيقي؛ لأنه يؤدي غرضه الموضوع له في موضعه، وكذلك اللفظ الخشن القوي المعبر في موضعه الذي يعبر به عن شيء قبيح أو مستهجن أو تصرف غريب في موضعه أفضل وأدق من غيره في أداء المعنى المقصود والمراد.

4- وكذلك اللفظ بإيحاءاته وظلاله معبر أيما تعبير عن المراد، معرضًا تارة ومنبهًا تارة ومحذرًا تارة، وتلك سمة من سمات القرآن الكريم.

5- خيالات الألفاظ في القرآن ومعانيها الثانية هي من مواطن إعجاز القرآن الكريم التي لو بدلت كلمة مكان كلمة لما أدت المراد والمقصود منها، فإعجاز القرآن في حروفه وفي كلماته ونظمه، لا شك في ذلك.

الموضوعات التي أثارها البحث:

1- الإعجاز النفسي في القرآن الكريم.

2- المطابقة الأسلوبية بين المقام والمقال لفظًا ومعنى.

3- قراءة النفس البشرية بالألفاظ، في القرآن.

ثبت لأهم المصادر والمراجع

1- ابن القيم في الفوائد المشوق إلى علوم القرآن الكريم، طبعة مكتبة المتنبي، بدون تأريخ.

2- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، طبعة مصطفى البابي الحلبي.

3- أبو السعود في تفسيره، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، طبعة دار الفكر، بيروت.

4- أبو حيان محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي" 654- 754هـ، في كتابه: البحر المحيط، مراجعة/ صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر، سنة 1412هـ، 1992م.

5- أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، في كتابه معاني القرآن، سلسلة تقريب التراث، إعداد ودراسة د/ إبراهيم الدسوقي عبد العزيز، إشراف ومراجعة د/ عبد الصبور شاهين، طبعة مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى سنة 1409هـ، 1989م.

6- الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، في: المفردات في غريب القرآن، طبعة دار الخلود للتراث.

6- الأنصاري أبو زكريا الأنصاري شيخ الإسلام الإمام أبي يحيى زكريا الأنصاري، في كتابه: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق الشيخ/ محمد علي الصابوني، طبعة مكتبة الصابوني، الطبعة الأولى، سنة 1405هـ، 1985م.

7- جان كانيتنو: دروس في علم الأصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي.

8- الجرجاني، على بن محمد بن على، التعريفات حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الإبياري، طبعة دار الريان للتراث، سنة 1403 هـ.

9- الخطابي محمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، في كتابه: بيان إعجاز القرآن.

10- الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في أساس البلاغة، مادة جلب، تقديم، د/محمود فهمي، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، سنة 2003م.

11- سيد قطب في كتابه: النقد الأدبي أصوله ومناهجه.

12- السيوطي الحافظ جلال الدين السيوطي في الإتقان في علوم القرآن، تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية، بيروت لبنان، سنة: 1418هـ، 1997م.

13- عبد القاهر الجرجاني" ت 471هـ، في كتابه دلائل الإعجاز، بتصحيح الشيخ/ محمد عبده، والشيخ/ محمد محمود التركزي الشنقيطي، ونشره السيد محمد رشيد رضا، الطبعة الثانية، بمطبعة المنار، سنة 1331هـ.

14- الماوردي الإمام أبي الحسن علي بن محمد حبيب الماوردي البصري"364-450هـ" في مصحف التهجد، ومعه تفسير الماوردي، المسمى: النكت والعيون، تحقيق الشيخ/ خضر محمد خضر طبعة: دار الصفوة، الطبعة الأولى، سنة 1413هـ، 1993م.

15 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم المصرية، سنة 1418هـ- 1997م. 16- المطعني، عبد العظيم إبراهيم أحمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، تاريخ الإيداع في دار الكتب، 1992.